View metadata, citation and similar papers at core.ac.uk
brought to you by CORE
provided by The International Islamic University Malaysia Repository

لمحات التربية العقدية
في "التفسير المظهري" للقاضي ثناء الله البانني بتي

محمد عادل خان آفريدى*

ملخص البحث:

يحاول هذا البحث بيان منهج القرآن الكريم في التربية العقدية الإسلامية، من خلال كتاب "التفسير المظهري" للإمام القاضي ثناء الله المظهري الپاني پتي -رحمه الله تعالى-، ويتناول لمحاته من تربية الإنسان عقيدة التوحيد، والرسالة والنبوة، والقضاء والقدر، بتقديم نماذج من كلامه في كل منها.

الكلمات المفتاحية: التفسير المظهري، التربية العقدية، التوحيد، الرسالة، القضاء والقدر.

Abstract

This research attempts to explain the approach of the Quran regarding Islamic doctrinal education by studying the exegesis of the Quran, al-Tafsir al-Mazhari, written by Qadi Thana'Ullah Panipati, may Allah's mercy be upon him. The study deals with educating the mankind doctrine of monotheism, the prophethood and messengership, and fate and destiny by providing samples from the exegete's commentary regarding all of these matters.

Key words: al-Tafsir al-Mazhari, doctrinal education, Islamic monotheism, prophethood, fate and destiny.

Abstrak

Kajian ini cuba untuk menerangkan pendekatan al-Quran mengenai pendidikan doktrin Islam dengan mengkaji tafsiran al-Quran, al-Tafsir al-Mazhari, yang ditulis oleh Qadi Thana'Ullah Panipati, semoga Allah (swt) memberi rahmat kepadanya. Kajian ini berurusan dengan pendidikan

* الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية العامّة، كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانية، في الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

doktrin manusia monoteisme, kenabian dan kerasulannya dan nasib dan takdir dengan menyediakan sampel dari komentar mengenai semua perkara-perkara ini.
Kata Kunci: al-Tafsir al-Mazhari, pendidikan doktrin, monoteisme, prophethood, fate and destiny.

مقدمـــة

لا يخفى على من يؤمن بالله أن التربية الإسلامية تشمل واقع الإنسان المادي والروحي، وتهتم بكل مقوماته الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية، وتسعى إلى تحقيق التوازن التام بين كل هذه المقومات في حياته الاجتماعية والفردية؛ لأن ثمرتها تتعلق بالدنيا والآخرة.

ولا يناهض أيُّ منهجٍ من المناهج الوضعية التربوية، منهجَ القرآن الكريم في تربية الإنسان العقدية، خاصةً في إيمانه بالله ووحدانية في الصفات والكمال، والإيمان برسولنا المصطفى ﷺ، وكذلك منهج القرآن الكريم في الإيمان بالقضاء والقدر، فهذه أمور لا يستهان بذكرها في حياة الإنسان.

وقد وجدنا الإمام الجليل القاضي ثناء الله المظهري الپاني پتي –رحمه الله تعالى– أنه أسهب في بيان هذا المنهج في كتابه "التفسير المظهري"، فأردنا أن نقتبس منه بعض اللمحات لتلك التربية العقدية، راجيًا من الله سبحانه وتعالى فيها الفائدة للقراء الأكارم.

نبذة وجيزة عن حياة القاضي ثناء الله الباني بتي

القاضي ثناء الله هو الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث ثناء الله العثماني الپاني پتي، أحد العلماء الراسخين في العلم، كان من ذريّة الشيخ جلال الدين العثماني، يرجع نسبه إليه باثنتي عشرة واسطة، وينتهي إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولد ونشأ ببلدة "پاني پت" في الهند، وحفظ القرآن، وقرأ العربية أياماً على أساتذة بلدته، ثم دخل دهلي[1]، وتفقّه على الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي وأخذ الحديث عنه، ثم لازم الشيخ محمد عابد السنامي، وأخذ عنه الطريقة، وبلغ في صحبته إلى فناء القلب، ثم لازم الشيخ جانِ جانان العلوي الدهلوي، وبلغ إلى آخر مقامات الطريقة المجدّدية[2]، وكان الشيخ المذكور يحبّه حباً جماً، ولقّبه بـ"علم الهدى"، ويقول: "إن مهابته تغشى قلبي لصلاحه وتقواه وديانته، وإنه مروّج للشريعة، منوّر للطريقة، متّصف بالصفات الملكوتية تعظمه الملائكة"، ويقول: "إذا سألني الله عن هديّة أقدّمها إلى جنابه قدّمت ثناء الله"، انتهى. ولقّبه الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي بـ"بيهقي الوقت" نظراً إلى تبحّره في الفقه والحديث[3].

قال الشيخ غلام علي العلوي الدهلوي في المقامات: "إنه كان متفرّدًا في أقرانه في التقوى والديانة، وكان شديد التعبّد، يصلي كل يوم مائة ركعة، ويقرأ من القرآن الكريم حزبًا من أحزابه السبعة مع اشتغاله بالذكر والمراقبة وتدريس الطلبة وتصنيف الكتب وفصل القضايا"، وقال الشيخ المذكور في موضع آخر من ذلك الكتاب: "إنه كان مع صفاء الذهن وجودة القريحة وقوة الفكر وسلامة الذهن، بلغ إلى رتبة الاجتهاد في الفقه والأصول"، له كتاب مبسوط في الفقه، التزم فيه ببيان المسألة مع مأخذها ودلائلها ومختارات الأئمة الأربعة في تلك المسألة، وله رسالة مفردة في أقوى المذاهب المسمّى بـ"الأخذ بالأقوى"[4].

---

[1] مدينة معروفة في الهند.

[2] درجةٌ من درجات الطريقة في علم التصوف الصحيح.

[3] اللكنوي، عبد الحي، **نزهة الخواطر**، (بيروت: دار النشر، ط1، 1420هـ)، ج7، ص942.

[4] المصدر السابق، ج7، ص942.

وقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في اليانع الجني: "إنه كان فقيهاً أصولياً زاهداً مجتهداً، له اختيارات في المذهب، ومصنفات عظيمة في الفقه والتفسير والزهد، وكان شيخه يفتخر به" انتهى.

ومن مصنّفاته المشهورة: "التفسير المظهري"[5] في سبع مجلدات، وكتاب "مبسوط" في مجلدين في الحديث، و"ما لابدّ منه" في الفقه الحنفي، و"السيف المسلول" في الردّ على الشيعة، و"إرشاد الطالبين" في السلوك، و"تذكرة الموتى والقبور" و"تذكرة المعاد" و"حقيقة الإسلام" ورسالة في حكم الغناء، ورسالة في حرمة المتعة، ورسالة في العشر والخراج، ورسائل أخرى.

مات في غرة رجب سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ببلدته "پاني پت"، في الهند. رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وأسكنه في فسيح جناته، آمين[6].

إطلالة على التفسير المظهري

كان الإمام المظهري متضلّعا بعلوم القرآن والحديث، والسلوك والإحسان، والفقه والقراءات. وقد سلك في تفسيره منهج الرعيل الأول من المفسرين أمثال الثعلبي وابن كثير في تفسير القرآن بالحديث، وآثار الصحابة والتابعين.

ويتجلّى من خلال تفسيره أنه لم يكن مجرد ناقل، يجمع بين الغث والسمين، بل كان محدثا صيرفيا ناقدا، ينقل في ثنايا تفسير الآية حديثا، فيذكره بالسند، وإن وجد فيه علة تحدّث عنها مستمداً بأقوال أئمة الجرح والتعديل.

وكان له اطلاعٌ واسعٌ على أقوال أئمة القراءة المروية عنهم في ألفاظ الكتاب الحكيم، ومن دأبه في تفسيره أنه يسرد أقوال الأئمة ويستوعبها، ثم يرجّح ما هو الراجح عند الجمهور، وهي ميزة تفرّد بها تفسيره عن كتب التفسير للمتقدمين والمتأخرين.

---

[5] والذي نحن بصدد الكلام عنه الآن.

[6] اللكنوي، **نزهة الخواطر**، ج7، ص942.

وكان فقيهًا حنفيًّا مجتهدًا، يبسط الكلام في آيات الأحكام بسطًا، حيث لا يبقى عليها غبار، ثم إن كانت المسألة مختلفًا فيها بين الفقهاء، أيّد مذهبَ الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

وكان -رحمه الله- لا يهمل التصوف، بل يرى أن طريقة الإحسان والسلوك أنفع الوسائل لتزكية القلوب وتطهيرها وأقواها لمعرفة الله سبحانه والتقرّب إليه مع اتباع القرآن والسنة فيه، ولا يخفى على متصفّحِ تفسيرِه أنه تعرّض لإثبات أهمية الطريقة والإحسان والسلوك في كثير من المواضع، مع انتقاده فيها أخطاء بعض الصوفية الجهلة.

وإحدى مزايا الكبرى لتفسيره أنه زبدة غرر نقول المتقدمين من المفسرين والمتأخرين منهم، حتى فاق في مواضع غير قليلة على "فتح القدير" للشوكاني في حسن اختياره للحديث وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المفسّرين الكرام، رحمهم الله تعالى.

أهمية التربية الإسلامية

يتقلّب المسلم في ظلال التربية الإسلامية حياة تملؤها السعادة والاطمئنان، حياة تربطه بربّ العالمين، حياة تربطه بأنبيائه ورسله، الذين بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، وتربطه بخاتم الرسل الحبيب المصطفى ﷺ، الذي بعثه الله ليخرج العالم الإنساني من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام، ومن الشقاوة إلى الرحمة، ومن الدناءة والذلّ إلى العزّ والكرامة والشهامة، وجاء لينقذهم من عبادة الآلهة إلى عبادة الربّ الواحد الأحد الصمد، وليرشدهم إلى الوعي الصحيح، ويحوّل المجتمع الإنساني من حفرة الفساد الخلقي إلى بقعة السعادة والوحدة والأخوّة والإيمان والعقيدة، فحبيبنا المصطفى الرسول ﷺ ركز جميع حياته على تربية أصحابه بعد أن آمنوا به تربية حكيمة، فإنها تنظّم حياة الإنسان مع ربّه سبحانه وتعالى، فعلّمهم بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق المستحق للعبادة، والإنسان مخلوقٌ وظيفته عبادة ربه والتوجّه إليه دائما، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اِقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ الّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ﴾ [العلق:1- 4]، وإنها تحقق السعادة للإنسان في الحياة الدنيا والآخرة، فالمسلم يعرف قدر الدنيا وقيمتها، فعالمه أوسع من عالم الحياة المادية الأرضية وحدها، فالتربية الإسلامية تقوم على أساس الواقع المادي والروحي للإنسان، دون الاقتصار على جانب واحد منها فقط، والمسلم يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ما عمله في الدنيا سوف يجده ويحاسب عليه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77].

والتربية الإسلامية تنظم حياة المسلم مع مجتمعه الذي يعيش فيه، وتعمل على تقوية الروابط بين المسلمين ودعم قضاياهم والتضامن معهم، قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ [الحجرات:10]، وقال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر»[7]. وكذلك تهتمّ التربية الإسلامية بكل مقومات الإنسان الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية، وتسعى إلى تحقيق التوازن التام بين كل هذه المقومات في حياته الاجتماعية والفردية.

ونقدّم في مقالنا هذا دراسة بسيطة لبعض العقائد الإسلامية الأساسية التي اهتمّ بها الكتاب الحكيم، والتي ذكرها رسولنا الكريم، معلّم البشرية جمعاء، ﷺ، متماشياً مع تفسير الإمام ثناء الله الباني بتي، الذي عُرف في الأمصار العربية والعجمية بـ"التفسير المظهري":

أمثلة في التوحيد

---

[7] أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، في **صحيحه**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير ، اليمامة، ط3، 1407هـ/1987م)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج5، ص2238، رقم5665؛ ومسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري –واللفظ له– في **صحيحه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط.، د. ت.)، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج4، ص1999، رقم2586.

1. يقول القاضي ثناء الله المظهري صاحب "التفسير المظهري" في سياق ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: "حقيقة الإيمان وكمال الإيمان أن يعرف ببصيرته أنه تعالى هو المتأصل في الوجود، خالق لكل شيء من الأعراض والجواهر، نافعٌ وضارٌّ، وليس شيء ممّا سواه موصوفا بالحسن والكمال إلا مستعارا منه تعالى، فلا يبقى لقلبه علاقة علمية ولا حبية إلا به تعالى، وتكون نفسه بعلاقة الحبّ به تعالى مجبولةً على الإتيان بما أمره الله به، والانتهاء عما نهى عنه، حتى يكره صدور المعصية منه أشدّ ممّا يكره أن يقع في النار. قال البغوي: قال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ أي أقيموا واثبتوا على الإيمان ... وقال الضحاك: أراد بالخطاب اليهود والنصارى، يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى وعيسى ﴿آمِنُوا﴾ بمحمد والقرآن. وقال مجاهد: أراد به المنافقين، يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللسان ﴿آمِنُوا﴾ بالقلب. وقيل: المراد به أهل الشرك، يعني ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللّات والعزّى ﴿آمِنُوا﴾ بالله ورسوله. وهذه الأقوال واهية؛ إذ الكفار: اليهود والنصارى والمشركون لا يُخاطبون بعنوان "الذين آمنوا" وكذا المنافقون؛ فإن الإيمان ليس من صفات اللّسان إلا مجازاً، والحمل على الحقيقة ما أمكن أولى. وقال البغوي: قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وكذا أخرج الثعلبي عنه أنه قال: "نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام بن أخت عبد الله بن سلام وسلمة بن أخيه ويامين بن يامين، فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب، أتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بمن سواه من الكتب والرسل، فقال الله تعالى: ﴿أمنوا بالله ورسوله﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَالْكِتابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل القرآن من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب والصحف. قال ابن عباس فآمنوا بكلّهم[8]... ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

[8] الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، **الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي**، تحقيق: الإمام

وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً﴾ من المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقة الصواب فإن الإيمان بكل واحد منها ملازمٌ للآخر، فالكفر بواحد منها بعد من الله وضلّ عن سواء السبيل وبالكفر بجميع ذلك بالطريق الأولى، قلت: "بل بالكفر بشيء من صفاته، كما أن المعتزلة كفروا بكونه تعالى متكلماً أو خالقاً لأفعال العباد، وبقولهم أنه تعالى يريد شيئاً ولا يوجد ذلك الشيء، يلزم عجزه تعالى عن إتيان مراده، فيلزمهم الكفر بالله تعالى بما هو عليه، قال بعض الأكابر: المعتزلة يقولون بأن العباد خالقون لأفعالهم، والله تعالى خالق للعباد، فينسبون خلق أفعال العباد إلى الله تعالى بالواسطة، وأمّا العوام فهم أسوأ حالا من المعتزلة لغفلتهم عن نسبة الأفعال إلى الله تعالى مطلقاً، لا يزعمون النفع والضرر إلا عن السلاطين أو اللصوص أو السموم أو الترياقات، فلابد لقطع مادة الغفلة من التشبث بأذيال الصوفية، حتى يسقط عن البصائر كل ما عدا الله تعالى"[9].

2. ذكر القاضي ثناء الله في سياق الآية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:35]: "النور في الأصل كيفيةٌ تُدركها الباصرة أوّلا، ويدرك بها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجسام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لايصح إطلاقه على الله تعالى، فهو ليس على ظاهره، ويدل عليه إضافته إلى ضميره تعالى في قوله: ﴿مثل نوره﴾ فالمعنى إما بتقدير المضاف أو على المبالغة، كقولك: "زيد كرم" أي ذو كرم أو كريم غاية الكرم، كأنه نفس الكرم مبالغةً، أو هو مصدر بمعنى الفاعل، يعني منوّر السموات والأرض بالشمس والقمر والكواكب، وبالأنبياء والملائكة والمؤمنين. كذا قال الضحاك. ويقال: منور الأرض بالنبات والأشجار. وقيل: معناه الأنوار كلها منه، يقال:

أبي محمد بن عاشور، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422ه/2002م)، ج3، ص401.

[9] المظهري، محمد ثناء الله پاني پتي، **التفسير المظهري**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1428ه/2007م)، ج2، ص241.

"فلان رحمة" أي منه الرحمة. وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح، يقول القائل: "إذا سار عبد الله من مرو ليلة، فقد سار منها نورها وجمالها". وقيل: المعنى مدبرها، من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: "نور القوم"؛ لأنهم يهتدون به في الأمور ... ﴿كَمِشْكَوةٍ﴾ وهي الكوة التي لامنفذ لها فإن كان لها منفذ فهي الكوة ... ﴿مِصْباحٌ﴾ أي سراج، مفعال من الصبح بمعنى الضوء. ومنه الصبح بمعنى الفجر ﴿الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج. قال الزجَّاج: "إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضَوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوؤه يزيد في الزجاج". وهذه الجملة صفة للمصباح، والعائد المظهر الموضوع موضع المضمر، ثم وصف الزجاجة بقوله: ﴿الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الجملة صفةٌ لـ﴿زجاجة﴾، والعائد فيها أيضا المظهر الواقع موضع الضمير. قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال والمد والهمزة، فهو فعّيل من الدرء. وقرأ أبو بكر وحمزة بضم الدال والمد والهمزة، وهذا الوزن شاذ، قال أكثر النحاة: "ليس في كلام العرب فُعِيل بضم الفاء وكسر العين"، وقال أبو عبيدة: "أصله فعول من درأت مثل سبوح"، ثم استثقلوا كثرة الضمّات فردّوا بعضها إلى الكسرة، كما قالوا عُتيّا بضم العين من العتو، وعلى هذين القرائتين هو مشتق من الدرء بمعنى الدفع، فإنه يدفع الظلام بضوئه، أو يدفع بعض ضوئه بعضا من لمعانه، أو يدفع الشياطين من السماء، وشبّهه بحالة دفعة الشياطين لأنه يكون في تلك الحالة أضوء وأنور. ويقال: هو من درأ الكوكب، إذا اندفع فيتضاعف ضوؤه في ذلك الوقت. وقيل: درأ بمعنى طلع، يقال: "درأ النجم" إذا طلع وارتفع، ويقال: "درأ علينا فلانٌ" أي طلع وظهر، والمعنى كأنها كوكب طالع. وقرأ الآخرون بضم الدال وتشديد الراء والياء منسوب إلى الدّر في صفائه وحسنه، فإن قيل: الكوكب أكثر ضوءا من الدّرّ، فما وجه نسبته إليه؟ قلنا: معناه أنه أضوء وأحسن من سائر الكواكب، كما أن الدر أضوء وأحسن من سائر الحبوب. وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام، وهي الزحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد. قلت: لعلّ ذلك

الكوكب هي الزهرة لكونها أضوء من غيرها. قيل: شبّه بالكوكب و لم يشبّه بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكسوف، بخلاف الكواكب. قلت: بل وجه ذلك أن المصباح يشبّه بالشمس حيث قال الله تعالى ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾، فشبّه الزجاجة بالكوكب ليدلّ على انحطاط رتبة الزجاجة من رتبة المصباح، ولو قال: كأنها شمس، لزم فضل الزجاجة على المصباح، وهو مخلّ بالمقصود.

﴿يُوقَد﴾ خبرٌ ثانٍ للمصباح، أو حال من الضمير المستكن في الظرف المستقر، أعني في ﴿زجاجة﴾ العائد إلى المصباح. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح التاء الفوقانية وفتح الواو والقاف المشدّدة والدال، على صيغة الماضي من التفعُّل، بمعنى توقّد المصباح، أي اتقدت، يقال: "توقدت النار" أي اتقدت، والباقون على صيغة المضارع المجهول من الإفعال، فأبوبكر وحمزة والكسائي بالتاء الفوقانية، على أن الضمير راجع إلى الزجاجة بحذف المضاف، والتقدير: توقد نار الزجاجة؛ لأن الزجاجة لا توقد، والباقون بالياء التحتانية على أن الضمير للمصباح أي يوقد المصباح.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ "مِن" للابتداء يعني ابتداء يوقد المصباح من شجرة، أو للسّببية على حذف المضاف أي من دهن شجرة، أبهم الشجرة، ثم وصفها بقوله: ﴿مُبارَكَةٍ﴾ ثم أبدلها وبيّنها بقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها؛ لأنها كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة، فإن الزيت يسرج به، وهو أصفى وأضوء الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى عصّار، بل كل واحد يستخرجه. قال البغوي: جاء في الحديث أنه مَصَحَّةٌ من الباسور[10]، وهي شجرة توقد من أعلاها إلى أسفلها. ذكر البغوي عن أسيد

---

[10] قال المناوي: "الباسور هو ورم تدفعه الطبيعة إلى كل موضع في البدن، يقبل الرطوبة من مقعدة وأنثيين وأشفار وغير ذلك، فإن كان في المقعدة لم يكن حدوثه دون انفتاح أفواه العروق، وقد تبدل السين صاداً، وقيل: إنه معرب لاعربي". المناوي، زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن زين العابدين الحدادي القاهري، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط1، 1356هـ)، ج1، ص501. والحديث أخرجه ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن مهران الرازي، في **علل الحديث**، (المكتبة الشاملة)، ج2، ص279،

بن ثابت أو أسيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»[11]. ورواه ابن ماجه والحاكم وصحّحه عن أبي هريرة مرفوعا: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه طيب مبارك»[12]. ورواه أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه شفاء من سبعين داء، منها الجذام»[13].

﴿لا شَرْقِيَّةٍ﴾ صفة لزيتونة، وحرف النفي جزء من المحمول. قيل: معناه ليس بمضحاة تشرق عليها الشمس دائما فتحرقها ﴿وَلاغَرْبِيَّةٍ﴾ ولا في مقنأة تغرب وتغيب عنها الشمس دائما فتتركها نيا، وهو قول السدي وجماعة. وقيل: معناه ﴿لاشرقية﴾، تقع عليها الشمس عند طلوعها فقط، ﴿ولاغربية﴾ تقع عليها الشمس عند غروبها دون طلوعها، بل هي نابتة على قلة أو في صحراء واسعة، تقع عليها الشمس دائماً، فيكون ثمرها أنضج وزيتها أصفى. قال البغوي: وهذا كما يقولون: "فلانٌ لا بأبيض ولا

رقم2338، والطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، في **المعجم الكبير**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1415ه)، ج17، ص281، رقم774، وعنه أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني الصوفي، في **الطبّ النبوي**، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2006م)، ج2، ص483. وقال أبو حاتم عقب هذا الحديث: "هذا حديث كذب".

[11] البغوي الفراء، محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، **تفسير البغوي المعروف بمعالم التنْزيل**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1420ه)، ج3، ص417. والحديث رواه الترمذي في **السنن**، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت، ج4، ص285، رقم1851 عن عمر بن الخطاب مرفوعًا وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق عن معمر، وكان عبد الرزاق يضطرب في رواية هذا الحديث، فربما ذكر فيه عن عمر عن النبي ﷺ، وربما رواه عن الشك فقال: أحبه عن عمر عن النبي ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلا". وأخرجه أحمد في **مسنده**، برقم16053؛ والترمذي في **سننه**، ج4، ص285، رقم1852؛ والحاكم في **المستدرك**، برقم3504 كلهم عن أبي أسيد مرفوعا. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب من هذا الوجه، إنما نعرفه من حديث سليمان الثوري عن عبد الله بن عيسى".

[12] ابن ماجه، **السنن**، ج2، ص1103، رقم3320، والحاكم، **المستدرك**، ج2، ص432، رقم3505. سكت الحاكم، وقال الذهبي: "عبدالله بن سعيد واه".

[13] أبونعيم، **الطبّ النبوي**، ج2، ص635، رقم684.

بأسود"، يريدون ليس بأبيض خالص ولا بأسود خالص، بل اجتمع فيه الأمران، يقال: "هذا الرمّان ليس بحامض ولا حلو"، أي بل اجتمع فيه الحموضة والحلاوة، وهو قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي والأكثرين. وقيل: معناه غير نابتة في مشرق الأرض ولا في مغربها بل في وسطها، وهو الشام، فإن زيتون الشام يكون أجود. وقال الحسن: ليست هذه من أشجار الدنيا، ولو كانت في الدنيا كانت شرقية أو غربية، وإنه مثل ضربه الله لنوره"[14].

استدلاله على وجود الله وحثه على التفكير في ربوبيته

3. ويقول القاضي المظهري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:165]: "أصناما أو رؤساءهم الذين كانوا يطيعونهم، أو ما هو أعمّ منهما، يعني كل ما كان مشغلا عن الله تعالى، مانعا عن امتثال أوامره ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظّمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيمهم لله أي يسوّون بينه وبينهم في المحبّة والطاعة، والمحبّة ميل القلب، كذا قال الزجاج، أو المعنى يحبون آلهتهم كحبّ المؤمنين الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حبّ الكافرين آلهتهم؛ لأنه لا ينقطع محبة المؤمنين، ولا يعرضون عن الله تعالى في السرّاء والضّراء والشّدة والرّخاء، بخلاف الكفار؛ فإن محبتهم لأغراض موهومة فاسدة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم عند الشدائد إلى الله تعالى، ويعبدون الصنم زمانا ثم يرفضونه إلى غيره، قال سعيد بن جبير: إن الله عز وجل يأمر يوم القيامة: من أحرق نفسه في الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون، ثم يقول للمؤمنين بين يدي الكافرين: إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم، فيقتحمون فيها وينادي منادي من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. قلت: ويمكن أن يكون

[14] المظهري، **التفسير المظهري**، ج5، ص201.

المعنى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من حب كل أحد لكل أحد؛ لأن محبتهم فيما بينهم إما لتوقع جلب منفعة، أو دفع مضرة، أو لالتذاذ يحصل برؤية الجمال، أو لانتسابهم إلى أنفسهم بالبنوّة أو الأبوّة، فهي في الحقيقة محبة لأنفسهم لا للمحبوبين، ومن ثم ترى زوالها بزوال تلك الأسباب، ثم الكفار منهم اقتصر نظرهم على الحظوظ العاجلة، ولا يعرفون لله سبحانه إلا وجوداً موهوماً، وينسبون المنافع والمضار إلى العباد أو الكواكب أو أسماء سمّوها هم وآباؤهم، فيحبونهم كحبّ الله أو أشد منه، والذين يدّعون الإسلام من أهل الأهواء كالمعتزلة والروافض والخوارج فلاعتقادهم بالمنافع والمضارّ المختصّة بالدار الآخرة واعترافهم بأن مالك يوم الدين هو الله الواحد القهار يحبّون الله تعالى أشد من حبهم لغيره تعالى، حيث يزعمون أن منافعهم ومضارهم مختصّة بالدنيا، ومن اختار الدنيا على الآخرة منهم فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه فلا كلام فيه، فهؤلاء الناس مشركون غيره تعالى به تعالى في أصل الحبّ المبني على إيصال النفع والضرر المبني على اعتقادهم بأن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله تعالى، فهم بسبب اقتدارهم بقاذورات الفلاسفة أكفاء للمشركين ومجوس في هذه الأمة، وأما أهل السنة والجماعة فلاعتقادهم بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأن الله تعالى هو الضار النافع دون غيره، فكما أنهم لا يعبدون غير الله تعالى كذلك لا يحمدون غيره، إلا بنوع من التجوز بإذنه وأمره، وكذلك لا يحبون غيره تعالى إلا لله تعالى، فحمدهم وحبّهم كلها راجعة إلى الله تعالى، إنما الحبّ الحبّ لله وإنما البغض البغض لله، غير أن حب عامتهم راجع إلى أغراض صحيحة أخروية مرضية لله تعالى، وأما أهل التحقيق منهم وهم الصوفية العلية الرضية فكل حب مبني على خوف أو طمع دنيوي أو أخروي لا يسمونه حبا، بل الحب عندهم نار يشتعل في قلوب المحبين، تحرق ما سوى المحبوب لا تبقي ولا تذر، حتى يسقط عن نظر بصيرته نفسه فكيف ينظر نفعه وضرّه وما سواه؟ ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ نعم رب قد أتى على الإنسان حين مستمر من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ولا مخطورا،

والسرّ في ذلك أن أقرب الأشياء عند العوام أنفسهم، فهم لا يحبون إلا أنفسهم أو لأجل أنفسهم، وأما المحققون فأقرب الأشياء إليهم هو الله سبحانه، الذي قال: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ أيها العوام، فهم لا يحبون أحداً إلا الله سبحانه ويحبون أنفسهم لأجله تعالى لا بالعكس، ويحبون كل محبوب لأجله تعالى، وأولئك هم الصادقون في دعوى المحبة الذاتية، وإذا بلغت المحبة إلى هذه المثابة يكون إيلام المحبوب عندهم كإنعامه، بل أحلى وألذّ، فإن في إيلامه إخلاص ما ليس في إنعامه، وهؤلاء هم الذين يقال لهم يوم القيامة بين أيدي الكافرين: "إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم" فيقتحمون فيها وينادي منادي من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، أليس تعلم أنه من كان يعبد الله تعالى خوفاً من جهنم وطمعاً في الجنة كيف يختار النار المؤبدة ابتغاء مرضات الله؟ ولا يتصور ذلك إلا من له محبة ذاتية وهو حامل أمانة الله التي حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا.

﴿وَلَوْ يَرَى﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للنبي ﷺ، أو لكل مخاطب ومفعوله بعده، وقرأ الباقون بالياء وفاعله ضمير السامع، يعني لو يرى السامع أو فاعله بعده ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد وحبّهم كحبّ الله، ومفعوله محذوف يعني أنفسهم ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ الكفار ﴿الْعَذابَ﴾ يوم القيامة، قرأ ابن عامر بضم الياء على البناء للمفعول والباقون بالفتح، وجواب لو محذوف، يعني لرأيت أمرا فظيعا عظيما، أو لندموا ندامة شديدة، وفائدة الحذف أنّ لو إذا جاء فيما يشوق إليه أو يخوف منه فيحذف الجواب هناك، يذهب القلب فيه كل مذهب ويستفاد منه كمال الشوق أو كمال الفظع، ولو وإذ تدخلان على الماضي، وإنما دخلتا على المستقبل لأن في أخبار الله تعالى المستقبل كالماضي في التحقق ﴿أَنَّ﴾ يعني لأن ﴿الْقُوَّةَ﴾ الغلبة ﴿لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ حال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ﴾ أي شديد عذابه، يتعلق بالجواب المحذوف على قراءة العامة، وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَإِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الهمزة في إِنَّ في الجملتين، فهذا استيناف،

والكلام قد تم عند قوله ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ﴾ ويحتمل على قراءة لو يرى الّذين ظلموا على الغيبة أن يكون الرؤية بمعنى الرؤية القلبية"[15].

كلامه في صفات الكمال لله وردّه على الفرق الضالة

4. وقد أسهب العلامة المظهري الكلام في صفات الكمال لله – جل وعلا – أثناء تفسيره لآية الكرسي فقال: ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر. والمعنى أنه تعالى هو المستحقّ للعبادة لا غير ﴿الْحَيُّ﴾ هو الذي يصح أن يعلم ويسمع ويبصر ويقدر ويريد، وكل ما يصح له فهو واجب له ما زال ولا يزال، ثابت له أزلاً وأبداً، لامتناعه عن القوة والإمكان، فالحياة صفة لله تعالى مبدأ لجميع صفات الكمال، ﴿الْقَيُّومُ﴾ قرأ عمرو ابن مسعود القيّام، وقرا علقمة القيّم، قال البغوي: كلها لغات بمعنى واحد، قال ابن مجاهد: القيّوم القائم على كل شيء. قال الكلبي: القائم على كل نفس بما كسبت، وقيل: هو القائم بالأمور، وقال أبو عبيدة: الذي لا يزول، وقال البيضاوي: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، فيقول من قام بالأمر إذا حفظه. وقال السيوطي: الدائم البقاء، قلتُ: مرجع الأقوال أنه دائم الوجود، القائم بنفسه، وقيّم الأشياء كلها، لا يتصور قيام شيء وبقاؤه إلا به، فمقتضى هذا الاسم أن ما سواه يحتاج إليه في بقائه كما يحتاج إليه في وجوده، كالظل بالنسبة إلى الأصل بل أشد منه احتياجاً ولله المثل الأعلى، ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ السنة فتورٌ يتقدم النوم في الوجود، ولذا قدّم ذكره مع أن قياس المبالغة يقتضي العكس، والنوم حالةٌ تعرض الحيوان من استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث يعطل الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، وهذه الجملة صفةٌ سلبيةٌ ينفي التشبيه فهي تأكيد لكونه حياً قيوماً، فإنه من أخذه نعاسٌ أو نومٌ كان ما دون الحيوة، فإن النوم أخ الموت، قاصرا في حفظ الأشياء وقيوميتها، ولذاك ترك العاطف، عن

---

[15] المظهري، **التفسير المظهري**، ج1، ص164.

أبي موسى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن «الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[16]، ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لقيوميته واحتجاجٌ على تفرّده في الألوهية، والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلاً في حقيقتهما، أو خارجاً عنهما، متمكنا فيهما، فهو أبلغ من قولنا: له السموات والأرض وما فيهن، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة، فضلا من أن يعاوقه مناصبة، ﴿يعَلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُم﴾ أي ما قبلهم وما بعدهم، أو ما يدركونه وما لا يدركونه، أو ما يأخذونه وما يتركونه، فإن ما تركوه كأنهم نبذوه خلف ظهورهم، والضمير لما في السموات والأرض تغليباً للعقلاء على غيرهم أو لمدلول ﴿ذا﴾ من الملائكة والأنبياء ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أي من معلوماته، إنما قيّد بقوله ﴿من علمه﴾ مع أن كل شيء معلومه، تنبيهاً على أن المراد بالإحاطة الإحاطة العلمية، ولم يقل: ولا يعلمون شيئا تنبيهًا على أن العلم التام المحيط بكنه الأشياء كلها مختصٌ به تعالى، ولا يوجد إحاطة علم غيره بكنه شيء إلا نادرا، أو المراد بعلمه العلم المختصّ به، وهو علم الغيب، فهم لا يحيطون بشيء من علم الغيب ﴿إِلَّا بِما شاءَ﴾ إحاطته، وذلك قليلٌ، قال الله تعالى: ﴿وَما أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والواو في ﴿ولا يحيطون﴾ إما للحال من فاعل ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾، أو للعطف، وإنما ذكر بالعطف؛ لأن مجموع الجملتين يدل على تفرّده بالعلم الذاتي التام، المحيط بأحوال خلقه، الدال على وحدانيته، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال البيضاوي: "تصويرٌ

[16] مسلم، **الصحيح**، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لاينام» ...، ج1، ص161، رقم179.

لعظمته وتمثيلٌ مجردٌ، ولا كرسي في الحقيقة ولا قاعد"[17]. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "أراد بالكرسي علمه". وهو قول مجاهد. ومنه قيل لصحيفة العلم "كرّاسة". وقيل كرسيه: ملكه وسلطانه، والعرب تسمّي الملك القديم كرسيا، قلت: ولو كان الكرسي بمعنى العلم أو الملك كان هذه الجملة بعد قوله: ﴿له ما في السّموت وما في الأرض يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ مستدركًا، والمشهور عند المحدثين أن الكرسي جسم. قال البغوي: اختلفوا في الكرسي، قال الحسن: هو العرش نفسه، وقال أبو هريرة: الكرسي موضوع أمام العرش، ومعنى قوله: ﴿وسع كرسيّه السّموت والأرض﴾ أي سعته مثل سعة السموات والأرض. وروى ابن مردويه من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[18]. ويروى عن ابن عباس: "أن السموات السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس". وقال علي ومقاتل: "كل قائمة من الكرسي طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع وهو بين يدي العرش ويحمد الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام، ملك على صورة سيد البشر آدم عليه السلام وهو يسأل للآدميين الرزق من السّنة إلى السّنة، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور وهو يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة وعلى وجهه عضاضة منذ عبد العجل، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد يسأل للسباع الرزق من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل للطير الرزق من السنة إلى السنة"... ﴿وَلا يَؤُدُهُ﴾ أي

---

[17] البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي الشافعي، **تفسير البيضاوي**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ)، ج1، ص154.

[18] راجع: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، **تفسير ابن كثير**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ)، ج1، ص520، والسيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الخضيري الشافعي، **الدر المنثور**، (بيروت: دار الفكر، 1993م)، ج2، ص17.

لا يثقله، مأخوذ من الأود، وهو الاعوجاج ﴿حِفْظُهُما﴾ أي السموات والأرض أو الكرسي وما وسعه، فهذه الجملة مع ما عطف عليه بيان لسعة علمه وتعلّقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظمة قدره وعموم قيوميته للأشياء. فهاتان الجملتان كانتا كحكم جملة واحدة، ولما كان كل جملة منها تأكيداً وبياناً لما سبق لم يذكر العاطف بين تلك الجمل، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه، ليس كمثله شيء في الذات، ولا في شيء من الصفات بوجه من الوجوه، فهو متعالٍ من أن يحمده الحامدون ويصفه الواصفون كما يليق به ﴿الْعَظِيمُ﴾ المستحقر بالإضافة إليه كل ما سواه.

ولما كانت هذه الآية خالصة في مباحث الذات والصفات دالة على كونه تعالى هو المتوحد بالوجود المتأصل المتصف بصفات الكمال من الحيوة، وما يستتبعه من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام المفيض للوجود والتقوم لكل ما سواه بحيث يكون قيام كل ما سواه به تعالى لا كقيام العرض بالعين كما يتوهم من كلام بعض الأكابر حيث قال: العالم أعراض مجتمعة في عين واحد بل على نحو لا يسعه مجال الخيال. وأقرب العبارات التي يعبر بها ذلك القيام أنه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد المنزه عن التحيز والحلول والمبرأ عن التغير والفتور، مالك الملك والملكوت، ذو البطش الشديد الذي لا يطاق انتقامه إلا بشفاعة من أذن له، عالم بالأشياء علما محيطا بالإحاطة التامة بكنه كل جلي وخفي، متوحد بعلومه لا يعلم أحد شيئا منها إلا بتعليمه، واسع الملك والقدرة يتجلى على بعض مخلوقاته تجليا لا ينافي علو تنْزيهه، لا يؤده شاق ولا يغنيه شأن عن شأن، متعال عما لا يليق به بل متعال من أن يصفه الواصفون، عجز عن حمده من بيده لواء الحمد يوم القيامة، حيث قال: "أنتَ كما أثنيتَ على نفسك"[19]، العظيم يستحقر

---

[19] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب الدعوات، باب دعاء "أعوذ برضاك من سخطك"، ج5، ص524، رقم3493، والنسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، في **السنن الكبرى**، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411ه /1991م)، كتاب الوتر، باب ما يقول في آخر وتره، ج1، ص452، رقم1444. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن".

بإضافته كل شيء ولا يحيط به علم عالم ولا تناسب عظمته عبادة عابد معترف بالقصور في عبادته أسبق السابقين حيث قال: ﴿ما عبدناك حق عبادتك، فلذلك لما قيل: يا رسول الله! أيّ آية أعظم؟ قال: «آية الكرسي اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ». ولما قيل أي سورة أعظم؟ قال: ﴿قل هو الله أحد». رواه الدارمي من حديث أيفع بن عبد الكلاعي[20]. وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن الحسن مرسلاً: "أعظم آية آية الكرسي"[21]. وأخرج مسلم من حديث أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر! أي آية من كتاب الله أعظم»؟ قلت: الله لا الله إلّا هو الحيّ القيّوم، قال: فضرب في صدري وقال: «ليهنئك العلم» ثم قال: «والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لسانا وشفتين يقدس الملك عند ساق العرش"[22]، قلت لعل معنى هذا الحديث أن حملة العرش يقدسون الله بهذه الآية، والظاهر أن يقال لكل شيئ صورة في المثال، حتى القرآن وآياته ورمضان وغير ذلك"[23].

أمثلة في الرسالة:

إن الله تعالى جعل الإيمان برسله كلهم ركنًا في الدين، والارتباط بهم ليس تعلقًا بأشخاصهم من الناحية البشرية، بل هو ارتباط بالوحي الذي أكرموا به، والأحكام والوصايا والتعليمات والأسوة التي تؤخذ منهم، ونعتقد أن لهم قلوباً نقية صافية، لها علاقة غير منفكة بالملأ الأعلى، ولهم عقول حصيفة، لا تنخدع عن حقائق الأشياء، وأجسام

---

[20] الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد، **السنن**، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ)، ج2، ص540، رقم3380. قال حسين سليم أسد: "إسناده ضعيف لإرساله أو ربما لإعضاله وأيفع قال الأزدي: لا يصح حديثه".

[21] أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث** للهيثمي، نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح المصري، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، (المدينة المنورة: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، ط1، 1413هـ/1992م)، ج2، ص738، رقم732.

[22] انظر: مسلم، **الصحيح**، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ج1، ص556، رقم810، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي، ج1، ص462، رقم1460.

[23] المظهري، **التفسير المظهري**، ج1، ص349.

مبرأة من العلل والأمراض، فهم معصومون من كل جهة، وإنهم أمناء على الوحي السماوي، فكلامهم حكمة، وحياتهم أسوة، سريرتهم وعلانيتهم سواء.

الذين يرشحون للنبوة، يصطفون لها اصطفاءاً. فإن النبوة هبة لاكسب، وفضل يغدق، لاحَظٌّ يطالب به ويسعى إليه، ثم إن الله لما ضمَّ الإيمان برسله إلى الإيمان به، جعل الكفر بواحد منهم كفرا به –جل شأنه– وبهم أجمعين، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:150-152].

ثم إننا كمؤمنين، نعتقد أن محمداً ﷺ أكمل الله به صرح النبوات، وأتمّ به حقيقة الرسالات، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: "هَلَّاوُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟"، قَالَ: فَأَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»[24]، فإن أحداً لو ادّعى بعد نبينا الحبيب المصطفى ﷺ بالنبوة فهو كاذب مارق، ومن صدّقه ونصره كفر.

وللإمام المظهري تحقيقات أنيقة حول النبوّة وحقيقتها، والأنبياء ووحيهم ومعجزاتهم، أوردها في ضمن تفسير آيات الكتاب الحكيم، وله في هذا الباب تحقيقات دقيقة، يكاد الباحث لا يجدها في كتب المتقدمين والمتأخرين، منها:

1. قال العلامة المظهري رحمه الله: "الوحي والنبوة الّتي للتشريع مختصٌ بالأنبياء، وهم الرجال فحسب، وهي الّتي انقطعت وختمت بخاتم النبيين محمد ﷺ، وأما الوحي

[24] رواه مسلم في **صحيحه**، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ج4، ص1790، رقم2286؛ وأحمد في **مسنده**، ج2، ص398، رقم9156؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج14، ص317، رقم6406.

الّذي ليس للتشريع، سواء كان بطريق الإلهام أو بكلام الملائكة كما كان لمريم، فغير مختص بالأنبياء، بل يكون للأولياء أيضا، و لم ينقطع بعد النبي ﷺ، وكذا حصول كمالات النبوة بالتبعية قد يكون لغير الأنبياء أيضا. قال الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي ـــ قدس سره ـــ في "الفتوحات" في الباب المائتين والسبعين: "إن النبوة وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع فما انقطع الميراث منها، فمنهم من يرث النبوة، ومنهم من يرث رسالته، ومنهم من يرث النبوة والرسالة معا، وما قال العلماء: النبوة اختصاص إلهي، فالمراد منه نبوة التشريع بنصب الأحكام بوحي إلهي، وهي الّتي عناها رسول الله ﷺ حيث قال: «إن النبوة والرسالة قد انقطعت فلا نبوة بعدي»[25]. وقال الشيخ في آخر باب الصلاة من "الفتوحات" نحو ذلك. وقال هناك: "وهؤلاء هم المقرّبون الذين قال الله فيهم ﴿عينا يشرب بها المقرّبون﴾. وقد ذكرت في تفسير سورة النساء وسورة الواقعة أن المراد بالمقربين هم الذين حصل لهم كمالان؛ النبوة بالوراثة، فالوحي الّذي ليس التشريع وليس مختصًّا بالأنبياء هو الّذي عبر عنه رسول الله ﷺ بالتحديث، حيث قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ محدّثون، فإن يكن من أمتي منهم أحد فإنه عمر»[26]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة بلفظ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال

---

[25] لم أجده بهذه الألفاظ، ولكن رواه بألفاظ قريبة منه الطبراني في **المعجم الكبير**، ج3، ص179، رقم3051 بسنده عن حذيفة بن أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ذهبت النبوة، فلا نبوة بعدي إلا المبشرات» قيل: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له». قال الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج7، ص88، رقم11721: "رواه الطبراني والبزار ورجال الطبراني ثقات". ورواه أحمد في **مسنده**، ج3، ص267، رقم13851 بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس قال: قال: «ولكن المبشرات». قالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة» قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

[26] رواه أحمد في **مسنده**، برقم24285، والبخاري، في **صحيحه**، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، برقم4369، ومسلم، في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب ﷺ، برقم2398.

يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي أحد فعمر»[27]، ولأجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن حبان والحاكم وصحّحاه عن عقبة بن عامر، والطبراني عن عصمة بن مالك وعن أبي سعيد الخدري، وابن عساكر عن ابن عمر[28]. قال الشيخ الشعراني في "اليواقيت والجواهر": "هل يكون الإلهام بلا واسطة؟ فالجواب نعم، قد يلهم العبد من الوجه الخاص الّذي بين كل إنسان وبين ربه عزّ وجلّ، فلا يعلم به الملك، لكن هذه الوجهة يتسارع الناس إلى إنكاره، ومنه إنكار موسى على خضر، فعلم أن الرسول والنبي يَشهدانِ الملك رؤية بصر، وغير الرسول يحسّ بأثره ولا يراه، فيلهم الله بواسطته ما يشاء أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط، وهذا أجلّ الإلقاء وأشرفه، ويجتمع في هذا الرسول والولي". ونقل الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن الشيخ أبي المواهب الشاذلي – قدس الله سرهما –: "أنه كان يقول في إنكار بعضهم على من قال: حدثني قلبي عن ربي، لا إنكار عليه، لأن المراد "أخبرني قلبي عن ربي" بطريق الإلهام الّذي هو وحي الأولياء، وهو دون وحي الأنبياء عليهم السلام، ولا إنكار إلا على من قال: "كلمني ربي كما كلم موسى عليه السلام"، انتهى كلامه. قلت: الولي أيضا قد يشهد الملك رؤية بصر، كما رأت مريم جبرئيل عليه السلام حين تمثّل لها بشرا سويّا، والله أعلم"[29].

كلام الإمام المظهري حول النبوّة

---

[27] البخاري، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، ج3، ص1349، رقم3486، ومسلم، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، ج4، ص1864، رقم2398.

[28] الترمذي، **السنن**، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، ج5، ص619، رقم3687، وقال: "حسن غريب". ورواه أيضاً أحمد في **مسنده**، ج4، ص154، رقم17405، والطبراني في **المعجم الكبير**، ج17، ص180، رقم475 عن عصمة، ج17، ص298، رقم822، والحاكم، في **المستدرك**، ج3، ص92، رقم4495، وصحّحه، ووافقه الذهبي. وابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج44، ص116.

[29] المظهري، **التفسير المظهري**، ج4، ص423.

تحدث الإمام المظهري حول النبوّة في سورة الزخرف، فقال: "﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوّة، استفهام إنكار، فيه تجهيل وتوبيخ وتعجيب من تحكمهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ أي ما به عيشهم من الأرزاق ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ تعليل للتجهيل والتوبيخ ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ تميز عن النسبة، يعني رفعنا درجات بعضهم فوق بعضهم بالمال والجاه، فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً، وبعضهم مالكاً وبعضهم مملوكاً، ﴿لِيَتَّخِذَ﴾ متعلق بـ"رفعنا" ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ مسخّرا في العمل له، والياء للنسبة، قال قتادة والضحاك: "أي يملك بعضهم بما لهم بعضا بالعبودية والملك، ولايقدر أحدهم أن يزيد في معيشته وينقص ما في معيشة غيره، ولا أن يعترض على الله فيما فعل من القبض"، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة وما يتبعها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، فإذا لم يقدر أحدهم أن يختار لنفسه الرفعة في الدنيا فأنّى لهم أن يجعلوا النبوّة التي هي أعلى مراتب الإنسانية حيث شاءوا والعظيم عند الله من رزق النبوة لا من رزق متاع الدنيا، والجملة عطف أو حال"[30].

حكمة اختصاص النبوة بالرجال من أهل القرى

وفي تفسير الآية الكريمة ﴿وَما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّن أَهلِ القُرى﴾ [يوسف:109]، قال الإمام المظهري: "﴿إلا رجالا﴾ لا ملائكة، رد لقولهم ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما نوحي إليك وبذلك امتازوا عن غيرهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ يعني من أهل الأمصار، لكونهم أعقل وأعلم وأحلم، دون أهل البوادي لغلظهم وجفائهم، قال الحسن: "نظراً إلى هذه الآية، لم يبعث الله نبياً من بدو ولا من الجن ولا من النساء"، قلت: لادليل في الآية على نفي النبوة من الجن، فإنه تعالى قال: ﴿كانَ رِجالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ وأيضا الكلام في بعث الرسل إلى

[30] المصدر السابق، ج6، ص276.

الإنس، وذلك لايقتضي عدم إرسال الجن إلى الجن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾"[31].

وقال العلّامة المظهري في موضع آخر: "لما بعث الله محمّدا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم فقالوا: "الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً"، فأنزل الله تعالى: ﴿أكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ استفهام إنكار للتعجب، و﴿عجبا﴾ خبر ﴿كان﴾، واسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنا﴾، واللام في للناس متعلق بمحذوف، حال من قوله ﴿عجبا﴾، وفي اللام دلالة على أنهم جعلوه عجوبة لهم، يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم، والعجب حالةٌ يعتري للإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة، ووجه الإنكار على استعجابهم أنّ عادة الله تعالى جارية من بدء خلق آدم عليه السلام على بعث الرسل من البشر، ومن ثمّ أنزل الله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا﴾، وأيضا عادة الملوك جارية بأن الكتاب والخطاب يكون بلسان المخاطبين، والرسول من جنس من أرسل إليهم، فإنه لابد للإفادة والاستفادة من المناسبة بينهما، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْكانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَّسُولًا ... إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [الإسراء:95] يعني من آحاد رجالهم، دون عظيم من عظمائهم، قالوا: "وإن كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة، ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أحد أشرف من محمد ﷺ"، يعنون الوليد بن مغيرة من مكة ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله تعالى ردّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وكان هذا من فرط حماقتهم وجهلهم بحقيقة الوحي، وقدكان رسول الله ﷺ أعظم وأتمّ وأكمل في كرائم الأوصاف وفي كل شيء إلا في المال، وخفّة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك"[32].

---

[31] المظهري، **التفسير المظهري**، ج4، ص64.

[32] المظهري، **التفسير المظهري**، ج3، ص396.

أمثلة في القضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من عقائد التي أسّسها الإسلام على الإيمان بالله عزوجل، وبناها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا، وأسمائه الحسنى، وصفاته العظمى. ووافق العقل والنقل في ذلك كله، ثم فصلت هذه الكلمات الواجبة لرب الوجود ﴿الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى﴾ [الأعلى:2،3]، فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والإطمئنان إليه أن لله وحده صفات العلم الواسع، والإرادة الشاملة، والقدرة الكاملة، وأنه سبحانه فعّال لمايريد، عالم بمايفعل.

وعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر، فكان الإيمان بها جزءاً متمّمًا للإيمان بالله، وعنصراً من الحقيقة الواضحة المشرقة.

وأحداث الحياة، وما أكثر ما يلوح في آفاق الحياة من خير وشر، وبؤس ورخاء، وحزن وفرح، ذلك كله استوعبه العلم الإلهي عدّاً وإحصاءاً، ﴿ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ولاأصغر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس:61].

إنما الغيب كتاب صانـــه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حينا بعد حين

هذا شيء من الخصائص التي لا قبل لنا بها، ولاسبيل لنا إليها، وفي مثلها يساق قول القرآن الحكيم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَيَخْتارُ مَا كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ● وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ ● وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:68، 70].

والإيمان بهذا الضرب من القدر واجب، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل. وعلى المؤمن أن يوقن من أعماق قلبه أن هذه الأمور مفروغ منها، مفرقة على ذويها من قديم، جفّت بها الأقلام، فلا رادّ لها.

لا ينبغي البحث عن القدر

قال الإمام المظهري: "قال البغوي: سأل رجل عليَّ بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن القدر؟ قال: "طريقٌ مُظلمٌ فلا تسلكه"، فأعاد السؤال، فقال: "بحرٌ عميقٌ فلا تلجه"، فأعاد، فقال: "سرٌّ خفيٌّ فلا تفشه". يعني هو أمر لا يمكن دركه بالعقل، وتفتيشه يوجب الهلاك كما يوجب الهلاك الولوج في البحر العميق والسلوك في الطريق المظلم. عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تكلم في شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة، ومن لم يتكلم فيه لم يسأل عنه». رواه ابن ماجه[33]. وقال أبي بن كعب: "لو أن الله عذب أهل سمواته وأرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كان رحمته خيرا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار"[34]. وحدث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ مثل ذلك، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه[35].

هذه أمور علّمها القرآن وأرادها، ونفدها استقلالاً، ولسنا منها في قليل ولا كثير، وقد أحسن سلفنا الصالح الإيمان بها، فكان أثرها في مسلكهم رائعًا.

قال الإمام البغوي في شرح السنة: "الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللّوح المحفوظ قبل أن خلقهم، قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات:96]، وقال عزّ وجل: ﴿قل الله

---

[33] ابن ماجه، **السنن**، كتاب السنة، باب في القدر، رقم84، وضعّفه البوصيري في **مصباح الزجاجة بزوائد ابن ماجه**، ج1، ص11، رقم27: فقال: "إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف يحيى بن عثمان".

[34] انظر: أحمد، **المسند**، رقم21589، ابن حبان، **الصحيح**، رقم727، والبيهقي، **كتاب الاعتقاد**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط1، 1401هـ)، ج1، ص149.

[35] المظهري، **التفسير المظهري**، ج1، ص345. والحديث أخرجه أحمد في **مسنده**، ج5، ص182، رقم21629؛ وأبو داود في **سننه**، كتاب السنة، باب في القدر، ج2، ص637، رقم4699؛ وابن ماجه في **سننه**، المقدمة، باب في القدر، ج1، ص29، رقم77. وصححه الألباني.

خالق كل شيء﴾ [الرعد:16]، وقال عزّ وجل: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر:49]، فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كلّها بقضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليها الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية، وأوعد عليها العقاب، والقدر سرٌّ من أسرار الله، لم يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه، والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين؛ أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً"[36].

ونقدّم هنا بليغ كلام الإمام المظهري – رحمه الله – في الإيمان بقدر الله وقضائه اللذين لايتمّ الإيمان إلا بهما عند جماهير العلماء – رحمهم الله – مفسراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بقدر﴾ حيث قال: "﴿كل شيء﴾ منصوب بفعل مضمر يفسّره ﴿خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ الجملة معترضة بين ذكر الكفار، نزلت ردّا لمخاصمة قريش. روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنَزلت ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ إلى قوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[37]، يعني خلقنا كل شيء بتقدير سابق، أو مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ معلومًا قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه.

قال الحسن: "قدّر الله لكل شيء من خلقه قدرَه الذي ينبغي له"، أي يقتضيه الحكمة. عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وكان عرشه على الماء» رواه مسلم[38]. وروى البغوي بسنده عن طاؤس بن مسلم اليماني قال:

---

[36] البغوي الفراء، محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، **شرح السنة**، (دمشق: المكتب الإسلامي، ط1413هـ)، ج1، ص142.

[37] الحديث أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، ج4، ص2046، رقم2656، والترمذي في **سننه**، أبواب القدر، باب ما جاء في المكذبين بالقدر من الوعيد، برقم2157.

[38] مسلم، **الصحيح**، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ج4، ص2044، رقم2653.

"أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس"[39].

وعن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع؛ يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر» رواه الترمذي وابن ماجه[40]، وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في أمتي خسف ومسخ، وذلك على المكذبين بالقدر» رواه الترمذي، وروى أبو داود نحوه[41]، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا لا تعودوهم، وإن ماتوا لا تشهدوهم» رواه أحمد وأبو داود[42]، وعن أبي خزامة عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت رقى تسترقى بها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه[43]، وفي الباب أحاديث كثيرة، وانعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة.

---

[39] البغوي، **شرح السنة**، ج1، ص134، رقم73.

[40] الترمذي، **السنن**، كتاب القدر، باب ماجاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، ج4، ص452، رقم2145، وهو صحيح؛ وابن ماجه، **السنن**، المقدمة، باب في القدر، ج1، ص32، رقم81.

[41] الترمذي، **السنن**، كتاب القدر، باب بدون عنوان برقم16، ج4، ص456، رقم2153، قال الترمذي: "هذا حديث غريب". ورواه نحوه أبوداود، **السنن**، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج2، ص614، رقم4613..

[42] رواه أبوداود في **سننه**، كتاب السنة، باب من دعى إلى السنة، ج2، ص634، رقم4613 من حديث عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه أبي حازم سلمة بن دينار عن ابن عمر، وقد جزم المنذري بأن أبا حازم سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر فالإسناد منقطع. وأحمد في **مسنده**، ج2، ص86، رقم5584، وص125، رقم6077 بطريقين آخرين عن ابن عمر، وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله أخرجه ابن ماجه، **السنن**، المقدمة، باب في القدر، ج1، ص35، رقم92، فيرتقي بمجموع الطرق والشاهد إلى الحسن لغيره.

[43] الحديث أخرجه أحمد في **مسنده**، ج3، ص421، رقم15510؛ والترمذي في **سننه**، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأودية، ج4، ص399، رقم2066، وقال: "هذا حديث حسن"، وابن ماجه في **سننه**، أبواب الطب، باب ما أنزل الله داءاً، ج2، ص1137، رقم3437.

﴿وَما أَمْرُنا﴾ في تكوين الأشياء وإعدامها وإعادتها ﴿إِلَّا واحِدَةٌ﴾ أي إلا فعلة واحدة وهي الإيجاد والإمحاء بلا معالجة، أو معناه إلا كلمة واحدة، وهي قوله تعالى كن في الإيجاد والصيحة في الإعدام والبعث كاينة في اليسر، والسرعة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ قال الكلبي: عن ابن عباس: "وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر، نظيره قوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾".

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ﴾ جمع شيع، معناه المثل، كذا في القاموس، يعني أهلكنا أشباهكم في الكفر ممن قبلكم يا أهل مكة! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ بالاعتبار ممن قبله، الفاء للسببية، والاستفهام للحثّ والتحريض بمعنى الأمر، يعني لقد أهلكنا يا أهل مكة أشباهكم فاذكروا واتّعظوا، متصل بما سبق في توبيخ أهل مكة وما بينهما معترضات.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ صفة لشيء فعله المكلفون ثابتٌ مكتوبٌ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي في صحائف الحفظة التي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيجازي بها يوم القيامة، أو في اللوح المحفوظ.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أعمال المكلفين، أو من الخلائق وأعمالهم وآجالهم ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ أي مسطور مكتوب في صحائف الحفظة، أو في اللوح المحفوظة، فهذه الجملة بيان وتفسير وتأكيد لما سبق، أو المراد بأحد الجملتين كونها مكتوبا في صحائف الحفظة وبالأخرى في اللوح المحفوظ، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل واللبن، أورد لفظ المفرد اكتفاء باسم الجنس موافقة لرؤوس الآي، وقال الضحاك يعني في الضياء السعة ومنه النهار، قال البغوي: قرأ الأعرج {ونُهُر} بالضمتين جمع نهار، يعني لا ليل لهم.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان لا لغو فيه ولا تأثيم، يعني الجنة، أو في مكان مرضي، قال الجوهري: يعبر عن فعل فاضل ظاهرا وباطنا بالصدق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم﴾، وقوله تعالى:

﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجني مخرج صدق﴾، قال البغوي: قال الصادق رض: "مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق"، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي عند الله مالك الأشياء كلها وملكها قادر لا يعجزه شيء، عندية غير متكيفة لا تدركه العقول والأفهام، إلا من فتق الله غشاوة بصيرته من الكرام، وفايدة التكبير فيها الإيماء إلى أن ما من شيء إلا تحت ملكه وقدرته. والله تعالى أعلم[44].

وللإمام المظهري نماذج علمية كثيرة لأبحاثه التي تتعلق بمعظم العقائد الإسلامية، والتي تستحق أن يقوم باحثٌ بإخراجها من مواضعها في تفسيره، وبالتالي جمعها في كتاب مستقل، وأما مقالنا هذا فغيض من فيض.

خلاصة البحث:

حاول هذا البحث أن يثبت أن التربية الإسلامية تنظم حياة المسلم مع مجتمعه الذي يعيش فيه، وتعمل على تقوية الروابط بين المسلمين ودعم قضاياهم والتضامن معهم، وكذلك تهتمّ التربية الإسلامية بكل مقومات الإنسان الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية، وتسعى إلى تحقيق التوازن التام بين كل هذه المقومات في حياته الاجتماعية والفردية، كل ذلك من خلال كتاب "التفسير المظهري" للقاضي ثناء الله المظهري الپاني پتي -رحمه الله تعالى-؛ لأن فيه لمحات تربوية عقدية تلفت النظر، فاخترنا منه عدة نماذج، منها أمثلة في التوحيد، واستدلاله على وجود الله وحثه على التفكير في ربوبيته، وكلامه في صفات الكمال لله وردّه على الفرق الضالة، وأمثلة في الرسالة، وكلامه حول النبوّة، وكلامه في حكمة اختصاص النبوة بالرجال من أهل القرى، وأمثلة في القضاء والقدر، وتحذيره من البحث عن القدر. بجانب نماذج أخرى لأبحاثه التي تتعلق بمعظم العقائد الإسلامية، والتي تستحق أن يقوم باحث بإخراجها من مواضعها في تفسيره، وبالتالي جمعها في كتاب مستقل، وأما مقالنا هذا فغيض من فيض.

---

[44] المظهري، **التفسير المظهري**، ج6، ص487.